﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

[الشُّعراء: 141 - 145]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

دأبُ الأقوامِ مع أنبيائِهم واحدٌ؛ من حيثُ تكذيبُهم وعدمُ الاستجابة لهم

بعد أن ذَكَرَ سبحانه وتعالى قصَّة هودٍ ﷺ مع قوم عادٍ، وأخبر عن موقفهم الرّافض لدعوة نبيّهم وإصرارِهم على التَّمسُّك بدين آبائهم؛ ذَكَرَ بعد ذلك قصَّةَ صالحٍ ﷺ مع قوم ثمود الّذين لم يكن موقفُهم مع نبيِّهم ودعوته بأحسنَ من موقف كلِّ الأقوام الّذين سبق ذِكْرُهم في السّورة مع أنبيائهم عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه، من الرّفض لدعوتهم والتَّعنُّت معهم؛ فقال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وفي ذلك تسليةٌ للنّبيّ ﷺ وتثبيتٌ له على الدّعوة والتّبليغ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ثَمُودُ﴾: (ثمد) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو القَليلُ مِنَ الشَّيءِ، فالثَّمدُ الماءُ القَليلُ لا مادَّةَ لَهُ، وثَمَدَتْ فُلانًا النِّساءُ إذا قَطَعْنَ ماءَهُ[1]؛ ومنه سُمّيت قَبيلَةُ ثمود؛ لِقلَّة مائها، وثَمودُ أُمَّةٌ مِنَ العَرَبِ البائِدَةِ العارِبَةِ، وثَمودُ: اسْمُ جَدِّ تِلْكَ الأُمَّةِ ولَكِنْ غَلَبَ على الأُمَّةِ؛ فلذلكَ مُنِعَ مِنَ الصَّرْفِ للعلميَّةِ والتَّأْنيثِ بِاعْتِبارِ الأُمَّةِ أَوِ القَبيلَةِ[2]، والمُراد بثَمود في الآية: اسمُ جَدٍّ سُمّيَتْ بِهِ القَبيلَةُ والجماعةُ.

2) ﴿تَتَّقُونَ﴾: (وقى) أَصْلُ الوِقايَةِ: دَفْعُ شَيْءٍ عن شَيْءٍ بِغَيْرِهِ، يُقال: وقَى نَفْسَهُ مِن العَدوِّ بِسِلاحِهِ؛ أيْ: دَفَعَهُ بِهِ، والوِقايَةُ: ما يَقي

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثمد).

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ثمد)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 116.

الشَّيءَ، واتَّقِ اللّه: تَوَقَّهُ؛ أَي: اجْعَلْ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ كالوِقايَةِ[1]، والمُتَّقي مَن اتَّصَفَ بالاتِّقاءِ وهوَ طَلَبُ الوِقايَةِ، وهوَ الحَذِرُ المُتَطَلِّبُ لِلنَّجاةِ مِنْ شَيْءٍ مَكْروهٍ مُضِرٍّ[2]، والاتِّقاءُ: تُكَلُّفُ الوِقايَةِ وهيَ الصَّوْنُ والدَّفْعُ[3]، وتأْتي الوِقايَةُ بِمعنى الحِفْظِ مِن الأَذَى والضَّرَرِ[4]، والمُراد بالاتِّقاء في الآية: حفظُ الشَّيءِ ممّا يُؤذيه ويَضُرّه.

3) ﴿أَمِينٌ﴾: (أمن) أَصلانِ مُتقاربانِ؛ أحدهما: الأمانةُ الَّتي هي ضدُّ الخيانَةِ، ومعناها سُكونُ القَلْبِ، والآخَرُ: التَّصْديقُ[5]، يُقالُ: أَمِنْتُ الرَّجُلَ أَمنًا وأَمَنَةً وأَمانًا، وآمَنَني يُؤْمِنُني إيمانًا، والعَرَبُ تَقولُ: رَجُلٌ أُمّانٌ: إذا كانَ أَمينًا، والأَمينُ: القويُّ لأَنَّه يوثَقُ بقوَّتِه[6]، والأمينُ أيضًا: الَّذي يحفظُ ما عُهِدَ له به حتّى يُؤدّيَهُ دونَ نَقْصٍ ولا تَغييرٍ، والرَّسولُ لا يُبعَثُ إلّا وقد كانَ معروفًا بالأَمانةِ وحُسْنِ الخلُقِ قَبْلَ الرِّسالةِ[7].

4) ﴿أَسْـَٔلُكُمْ﴾: أَصْلُ (سأل) كلمةٌ واحدة معناها: الاسْتِدْعاءُ والطَّلَبُ، يُقالُ: سَأَلَ يَسْأَلُ سُؤالًا ومَسْأَلَةً[8]، ويُقالُ: سَأَلْتُهُ عَنْ عِلْمٍ سُؤالًا ومَسْأَلَةً؛ أَيْ: طَلَبْتَ مَعْرِفَتَهُ، وسَأَلْتُهُ الصَّدَقَةَ؛ أَيْ: طَلَبْتُ منه أَنْ يَتَصَدَّقَ عليَّ[9]، والسُّؤالُ: استدعاءُ معرفة، أو ما يؤدّي إلى المعرفة، واستدعاءُ مالٍ، أو ما يؤدّي إلى المال، فاستدعاءُ المعرفة جوابُه على اللّسان، واليدُ خليفةٌ له بالكتابة أو الإشارة، واستدعاءُ المال جوابه على اليد، واللّسان خليفةٌ لها إمّا بوعدٍ، أو بردٍّ[10]، وحقيقةُ السُّؤالِ في الآية هو الطَّلَب.

5) ﴿أَجْرٍ﴾: أصلُ (أجر) الجَزاءُ على العَمَلِ[11]، ومنه سُمّيَ الثَّوابُ أَجْرًا؛ لأَنَّ اللّهَ يَجْزي العَبْدَ عليه، والأَجْرُ: العِوَضُ، مَصْدَرُ أَجَرَهُ وآجَرَهُ يَأْجُرُهُ ويَأْجِرُهُ، والأجير: فعيل

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (وقى).
(2) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (وقى)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 226.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 393.
(4) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (وقى)، والمِناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 340.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمن).
(6) ابن سِيدَه، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب: (أمن).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 164.
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، ولسان العرب: (سأل).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 194.
(10) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، ولسان العرب: (سأل).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجر).

بمعنى فاعِل أوْ مُفاعِل، والاستئجارُ: طلبُ الشَّيء بالأُجرة[1]، والمقصودُ بالأَجْر في الآية: العِوَضُ والجَزاءُ على العَمَلِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

هودٌ عليه السلام داعيةٌ يدعو باسم ربِّه إلى خيرٍ، وإلى هُدًى

يحكي اللّهُ تعالى جانبًا مِن قصَّةِ صالحٍ عليه السلام معَ قومِه، فيقولُ: كذَّبتْ قَبيلةُ ثمودَ بجَميعِ رُسُلِ الله؛ لأنَّ التَّكذيب برسولهم يستلزمُ التَّكذيب بالمُرسَلين جميعًا؛ لأنَّ دعوتَهم واحدةٌ، إذْ قال لهم نبيُّهم صالحٌ عليه السلام ألا تتّقون عِقابَ الله على معصيتكم إيّاه وخلافكم أمره بطاعتكم أمر المُفسِدين في الأرض؟ إنّي لكم رَسولٌ مِن اللهِ، أمينٌ على وحيِه، أبَلِّغُكم إيّاه بلا زيادةٍ ولا نُقصانٍ، فاتَّقوا عِقابَ اللهِ وسَخَطَه، وأطيعوني، ولا أطلبُ على نُصحي وتبليغي عِوَضًا ولا جزاءً، فما جزائي إلّا على الله الَّذي أرسلني، وهو يتولّاني في الدُّنيا والآخرة[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فصْل الجملة عما قبلها:

تسليتُهُ ﷺ بذِكْرِ قصَّةِ صالحٍ كما سلّاه بقصَّةِ نوحٍ وهودٍ عليهم جميعًا السَّلام

هذه الجملةُ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ مفصولةٌ عمّا قبلها للاستئناف، وهو استئناف تَعدادٍ وتكريرٍ[3]؛ كالّذي تقدَّم في هذه السّورة في قوله سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشُّعراء: 105]، وقوله سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشُّعراء: 123]، والهدف من ذِكْرِها جميعًا تسليتُه ﷺ عمّا لَقيَه من أذى قومه، وأشدُّه عليه عدمُ إيمانهم به، كما أخبر سبحانه عن حاله هذه في بداية السّورة بقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشُّعراء:

(1) الرّاغب، المُفردات: (أجر).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 618، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 127، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 90، والزُّحيليّ، التَّفسير المُنير: 19/ 199.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 174.

٤ وفائدةُ الاستئناف في كلٍّ من تلك القِصص الإشارةُ إلى أنَّ كلَّ واحدةٍ منها تصلحُ أنْ تكون عِبرةً للسّامعين وموعظةً للسّائرين.

نكتةُ ذِكْر صيغةِ الماضي المضعَّف في قوله: ﴿كَذَّبَتْ﴾:

التَّكذيبُ المتنوِّعُ الصّورِ سمةُ الأقوامِ البائدةِ

ذُكِر التَّكذيبُ صريحًا بصيغة الماضي ﴿كَذَّبَتْ﴾ للدّلالةِ على تحقُّق وقوعِه منهم، وقد شاع وذاعَ تكذيبُ ثمود نبيَّهم صالحًا عليه السلام؛ فكانت العرب تَعرفُ هذه الأخبار معرفةً وثيقةً، للقُرب بينهم وبين ديار ثمودَ، كما أفادت الصّيغةُ الصّرفيّةُ الدّلالةَ على المبالغةِ في فعل التَّكذيبِ، وأنّهم قد مارسوه بشتّى ألوانه وصوره.

لطيفة تأنيثِ الفعلِ في قوله: ﴿كَذَّبَتْ﴾:

تأنيثُ الفعلِ دالٌّ على كثرةِ المُكذِّبين

أُنِّث الفعلُ ﴿كَذَّبَتْ﴾ مع الفاعل ﴿ثَمُودُ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ لأنَّ اسم ﴿ثَمُودُ﴾ وإنْ كان في الأصل علَم سيِّدهم وكبيرهم؛ إلّا إنَّه صار علَمًا على أمّة؛ فهو مُؤوّلٌ بمعنى الأُمّة أوِ القبيلة، فكأنَّه قال: كذّبت أمّةُ ثَمود، أوْ: قبيلةُ ثَمودَ، أوْ: جماعةُ ثَمود، ونحو ذلك، إضافةً إلى أنَّ تأنيثَ الفعل الحامل على التّأوّل يدلُّ على كثرة هؤلاء المُكذِّبين لنبيِّهم صالح عليه السلام، وأنّهم أُمّةٌ عظيمةٌ وجماعةٌ كبيرةٌ.

لطيفةُ إيرادِ المفعول بصيغةِ اسمِ المفعول: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

التّوبيخُ للمُكذِّبين ببيانِ علَّةِ الجُحودِ

الرُّسُلُ لا يَدْعون النّاسَ إلى مصالحِهم الشَّخصيَّة، ولكنَّهم يُبلِّغون رسالةَ ربِّهم المُؤيَّدة ببراهين الصِّدق، ووصْفُ المُكذَّبين بـ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فيه توبيخٌ للمُكذِّبين؛ لأنَّهم لم يُكَذِّبوا مَن دعاهم إلى نفسه من حيث إنَّه فلان فيُتَّهم، وإنَّما كذَّبوا من أرسلَه الله إليهم، وأيَّده بما يدلُّ قطعًا على صِدْقه من المعجزات، وشأنُ المعجزة أن تُلزِم المُخاطَبينَ بالإذعان والتّصديق، فإنْ لم يفعلوا فما صَرَفَهُم عنه إلّا الجحود، كما أنَّ تكذيبَ المُرسَل يستلزم تكذيب المُرسِل وبراهينِه وآياته، ومِن ثَمَّ عدَلَ إلى هذا الوصف المُبيِّن علّةَ الجحود الحاملِ على التّوبيخ.

سِرُّ الجمع في قوله: ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

الرُّسُل جميعًا مُبلِّغون عن الله، وتكذيبُ أحدِهم تكذيبٌ لهم جميعًا

كلُّ المرسَلين بُعِثوا برسالةٍ واحدة هي رسالة التّوحيد، وإنْ تعدَّدت شرائعهم بما أذِن به الله تعالى وأنزله لحكمةٍ يعلمها؛ فدين الرُّسل واحدٌ، وإنَّ الآخِر منهم جاء بما جاء به الأوَّلُ، فمَن كذَّب واحدًا من الأنبياء فقد كذَّب جميعَهم[1]. فهذا سرُّ جمعِ ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ مع أنَّ المتحدَّث عنه هنا واحدٌ هو نبيُّ الله صالح عليه السلام.

وعلى جهة التَّفصيل في هذا الموضِع توجدُ لَفتةٌ أخرى في سرِّ هذا الجمع، وهي أنّ ثَمود قد كذَّبوا صالحًا، وكذَّبوا هودًا؛ لأنَّ صالحًا وعظَهم بعادٍ في قوله سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾ [الأعراف: 74] وبتكذيبهم هودًا عليه السلام يكونون قد كذَّبوا بنوحٍ عليه السلام أيضًا؛ لأنَّ هودًا ذكَّر قومَه بمصير قوم نوح في آية ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ [الأعراف: 69][2]. وعلى جهة الإجمال يتكرّرُ ما سبق ذِكْره، وهو أنَّ تكذيب واحدٍ من الرُّسُل هو بمثابة تكذيبِ جميعِهم.

نكتةُ الفصل في قوله: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾:

التَّفسيرُ بعد الإجمالِ من مقاصِد البُلغاء

جملة ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ﴾ تفسيرٌ لما قبلها، إذ ما قبلها كان كلامًا مُجمَلًا، فوقعت هذه الجملة منها موقعَ البيان والتَّفسير، ولذلك فُصِلت عنها؛ لما بينَهما من شِبْه كمال الاتِّصال، فكأنَّ سائلًا سأل: فماذا قال صالحٌ عليه السلام لقومه لمّا كذَّبوه؟ فكان الجواب: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾؟

دلالةُ الظرف في قوله: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ﴾:

تسليةُ النَّبي ﷺ بصبر إخوانه من الأنبياءِ والمُرسَلين الماضين

﴿إِذۡ﴾ ظرفيّةٌ لما مضى من الزّمان، وقوله سبحانه: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ﴾ ظرفٌ للتّكذيب باعتبار طول زمانِ الدَّعوة وامتداده، فهو زمانٌ مديدٌ وقع فيه ما وقع من الجانبيْنِ إلى تمامِ الأمر، كما أنَّ تكذيبهم

(1) الخازن، لباب التّأويل: 3/ 328.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 174.

عبارةٌ عمّا صدر عنهم من ابتداء دعوته ﷺ إلى انتهائها[1]. وفي التَّعبير بالظَّرف الدّالِّ على ما مضَى تسليةٌ[2] للنَّبيِّ ﷺ حين يعلمُ طولَ أمدِ تكذيب أقوام إخوانِه من الأنبياء السّابقين له، وكيف أنَّهم صبروا عليهم ولم يُبالوا برفضِهم وجُحودهم؛ لأنَّ مَهمَّتهم التّبليغ والدّعوة، وليس ما ينجُم عنهما من نتائج وثمراتٍ؛ فذلك أمرُه لله تعالى وحدَه.

لطيفةُ التَّعبير بالقول في قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ﴾:

جِـــوارٌ حـانٍ مـن الأنـبـيـاءِ لأقـوامـهـم على مـا فـيـهـم من تكذيبٍ وسفاهةٍ

التَّعبير بفعل القول دون (هدَّد) و(وبَّخَ) و(أنذَرَ) ونحوها، في قوله: ﴿قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ يُشعِرُ بما قام به صالح ﷺ من جهدٍ في محاورتهم، وأنَّه قد جرَت بينه وبينهم مقاولاتٌ وأخذٌ وردٌّ، كان من نتيجتها هذا التَّكذيب الجارف من قِبَلهم، بحيث لم يتأنَّوا فيه "بطلب دليلٍ، ولا ابتغاء وجهٍ جميلٍ"[3]، وفِعلُ القول يدلُّ على الأُنس والحوار الحاني والأسلوب الأخويِّ الطَّيِّب الجميل.

معنى (اللّام) في قوله: ﴿لَهُمْ﴾:

التّبليغ للأقوام هـي الـوظـيـفـة العُليا للأنبياء

اللّام في ﴿لَهُمْ﴾ هي لامُ التّبليغ والإيصال، وفيها معنى الاختصاص والغرض؛ لأنّها تحوي الدّلالة على حِرص نبيِّ الله هودٍ على إيصال دعوته إليهم بما يُرغِّبهم فيها ويُظهر حرصه عليهم واهتمامه بهم، فكأنَّهم الغرضُ الأسنى والمقصِدُ الأعلى لعمليَّة التّبليغ والدّعوة.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور في قوله: ﴿قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾:

التّـقـديـم دالٌّ على الاختصاص

ورد في النَّظم الكريم تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمْ﴾ على الفاعل ﴿أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ﴾، والسّببُ في ذلك التّقديم الإشارةُ إلى اختصاص

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 254.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 14/ 61.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 14/ 61.

صالح ﷺ بدعوة هؤلاء القومِ الّذين أُرسِل إليهِم دون مَن سواهم، وأنَّ دعوته مُختصّةٌ بهم، فلم يوجِّهِ التَّبليغ لغيرهم، ولا أظهر الآياتِ لمَن سواهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بوصفِ الأخوّةِ في قوله: ﴿أَخُوهُمْ﴾:

المُـــرادُ أُخـــوّةُ النَّسبِ والقبيلةِ

الأُخوّةُ هنا هي الأُخوَّةُ في النّسب والقرابة؛ لأنَّه ﷺ كان منهم، فـ "الأخُ هنا مُستعمَلٌ في مُطلَق القريب على وجه المَجاز المُرسل، ومنه قولهم: يا أخا العرب"[1]، وهذا كالذي سبقَ مع نوح وهود ﷺ؛ فقد قيل: ﴿أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ [الشُّعراء: 106]، و﴿أَخُوهُمْ هُودٌ﴾ [الشُّعراء: 124]؛ فجاء التَّعبير بالأُخوّة مُتّسقًا مع ما سبق، وأفاد هذا المجازُ صورةَ الارتباط الشّديد بين المرسَلين وأقوامهم، وأنَّهم كانوا حريصينَ على هدايتهم وإنقاذهم، فلم يتصوّروهم إلّا إخوةً، يُريدون لهم كلَّ صنوف الخير والرَّشاد.

نكتةُ الإضافةِ في قوله: ﴿أَخُوهُمْ﴾:

الأُخـــوّة مَدْعـاةٌ إلى تـمحـيـضِ النُّـصحِ وعـدمِ الارتيابِ

أضاف النظم لفظَ (الأخ) إلى ضمير (هم) في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾؛ وهي إضافة تعريفٍ، تنزيلًا لهم منزلةَ مَن لا يعرفون نسبَه، لِما أبدَوه تجاهه من صدٍّ وإعراض، وكأنّه غريبٌ عنهم يريدُ لهم الشّرّ، أوْ أنّ الإضافة هنا إضافة تخصيص، غرضها إبرازُ مَظاهر الاهتمام بهم؛ إذ أرسل ربُّهم إليهم رسولًا خاصّا بهم، يدلُّهم على الطَّريق المستقيم والنَّهج القويم في حياتهم الأولى، الَّتي هي المَعْبَرُ للحياة الآخرة، وأيًّا ما كان؛ فالنَّص بأنَّ صالحًا أخوهم الَّذي يعرفونه يقتضي ألّا ينفِروا منه؛ بل عليهم أنْ يُعينوه وأن يكونوا له عَضُدًا في دعوته، فهو أخوهم ومنهم، وهُم إخوتُه ومنه، ومُقتضاه أنّه حريصٌ عليهم حرصَه على نفسه، وذلك أدعى لاتِّباعه، لا للارتياب فيه أوِ النُّفورِ منه، وفي ذلك تعريضٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - ب/ 201.

بأهل مكَّة في مُعارضتِهم للرّسول ﷺ ومُعاداته، مع أنّه أخوهم في النَّسب والعشيرة والأهل والقبيلة الحريصُ عليهم.

نكتةُ تقديمِ الوصفِ على اسم الذّات العلم:

التَّقديمُ لغرضِ التّأنيسِ والتّأليفِ

قدَّم النّظمُ ﴿أَخُوهُمْ﴾ على ﴿صَٰلِحٌ﴾ تأنيسًا لهم وتأليفًا؛ أيْ: هو أخوهم ومنهم، فلن يدلَّهم إلّا على ما ينفعهم، لا ما يضرُّهم، كما يُعطي الوصفُ دلالة الرَّحمة الَّتي تحملها الأُخوّة، وبذلك يتناغمُ مع فعل القول الدّالِّ على الحوار والكلام الهادئ اللَّطيف.

براعةُ الإبدالِ أو البيانِ:

التّصريحُ باسمِ العلمِ للمدحِ والتّشريف

والسرُّ في التصريح باسم صالح ﷺ، اتِّساقُه مع ما مضى في نظيريّه في السّورة في قوله سبحانه: ﴿أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ [الشُّعراء: 106]، و: ﴿أَخُوهُمْ هُودٌ﴾ [الشُّعراء: 124]، وفي التّصريح بالأسماء في جميعها - فضلًا عن التّعريف بها - بيانٌ لِشَرف أصحابها وفضلهم في قيامهم بواجبهم تجاهَ الرِّسالة والدّعوة؛ وعليه فهو عطفُ بيانٍ أوْ بدلٌ لـ ﴿أَخُوهُمْ﴾ مقصودٌ به المدح وليس الإيضاح؛ لكونه معروفًا لا إبهام فيه، كما في قوله تعالى: ﴿۞جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: 97]؛ فقوله سبحانه: ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: 97] "عطفُ بيانٍ على جهة المدح، لا على جهة التّوضيح"[1] أو بدل يكون هو المقصود بالكلام، وأنَّ تقديم الوصف عليه لمجرد المِهاد والتّوطئة لذِكْرِه.

غرضُ الاستفهامِ في قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾:

تنبيهُهم إلى أهميَّةِ التّقوى وحضُّهم عليها وتوبيخُهم على إهمالِ قيمتِها

الاستفهامُ في قوله ﷺ ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ليس مُستعمَلًا بمعناه الحقيقيّ؛ لأنّه يَعلم عدمَ تقواهم، وإنَّما خرج لغرضٍ مجازيٍّ هو التّوبيخ والإنكار عليهم، لكونهم لم يتّقوا الله، و(لا) نافية للفعل، فـ(ألا) على هذا التّوجيه مُركّبةٌ من أداتيْن، ولمّا دخلت عليها همزة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 681.

الاستفهام صار النّفي إثباتًا؛ لأنّ نفيَ النّفي إثباتٌ؛ إذ المعنى: أُنكِر عليكم عدم التّقوى، ويَحتَمل أن تكون ﴿أَلَا﴾ كلمةً واحدةً للتّحضيض[1]، لحثِّهم وحضِّهم على التّقوى وعدم التّباطؤ عنها، والَّذي نميل إليه أنّها للعَرْض وليست للتّحضيض؛ لأنّ الأسلوب برُمَّته يدلُّ على الرِّفق في الخطاب والتّوجيه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالتّقوى:

التَّعبيرُ بالتّقوى كنايةٌ عن الإيمانِ للحثِّ عليه والمُسارَعةِ فيه

نصحَهم ﷺ في قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ بالتّقوى وحضَّهم عليها، أوْ عرضَ عليهم التّقوى بكلِّ رفقٍ ولينٍ، أوْ أنّه أنكرَ عليهم التّخلّي عنها وهي جِماعُ الخيرِ كلِّه، وساق ذلك بأسلوبٍ ملؤُه الشّفقةُ عليهم والخوف من أن يَحيقَ بهم سوءُ العاقبةِ، والتَّعبير بالتّقوى بدلَ (ألا تؤمنون) كنايةٌ عن الإيمانِ باللّه وبرسولِه وأوامرِه ونواهيه؛ لأنّهم لم يكونوا مؤمنين أصلًا حتّى يُذَكَّروا بالتّقوى، ولكنْ كانوا كفّارًا يُطالَبون بأصلِ الإيمان، والسِّرُّ البلاغيُّ لهذه الكناية طلبُ المُسارَعة بالإيمان حتّى لكأنّهم آمنوا ثمَّ حُثّوا على التَّقوى والخشية بعد تحصيلهم أصلَ الإيمان[2]. فالتّقوى مُستعمَلةٌ بمعنى الخوف من اللّه تعالى ولقائه، فتكون مُستلزِمةً للإيمان والعمل الصالح كليهما.

دلالةُ المضارعةِ في قوله: ﴿تَتَّقُونَ﴾:

نُصحُ الأنبياءِ مُتكرِّرُ الوقوع وبأساليبَ متنوِّعةٍ

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بصيغة المضارع ﴿تَتَّقُونَ﴾ لما فيها من معنى الاستقبال، وهُم وقتَ الخِطاب لم يكونوا مؤمنين، فحُثّوا على تحصيله بعد نَبذ الشِّرك، كما أنّ صيغة المُضارعة تدلُّ على أنّه كان يُنكِرُ عليهم على سبيل الاستمرار والتّجدُّد، أوْ يَعرِضُ عليهم الإيمان بشكلٍ مُتكرّرٍ وبأساليبَ متنوّعةٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 158، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 106.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيُّ للاستفهام: 3/ 106.

نكتةُ حذفِ المتُعلّق في قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾:

الحذفُ مفيدٌ للاختصارِ والعمومِ

حُذِفَ متعلّقُ ﴿تَتَّقُونَ﴾ اختصارًا للعلْم به؛ إذ المقطوع به أنّه حثَّهم على تقوى اللّه تعالى الَّذي أرسله والإيمانِ به كما توحي به لفظةُ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أيْ: (ألا تتّقون اللّه) الَّذي خلقَكم وأنعمَ عليكم بالنّعَم الظّاهرة والباطنة، فيَقيكم بأسَهُ وغضبَهُ؟ كما أفاد الحذفُ العمومَ، فعليهم أن يتَّقوا اللّه واليومَ الآخِر وعذابَه ونِقمتَه، إلخ.

نكتةُ فصلِ جملة ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ عما قبلها:

التّعليل يُفيد الإقناعَ والوضوح

وقع الفصل بين جملة ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ والَّتي قبلَها وهي جملة: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ لكونها جملةً تعليليّةً لها؛ أيْ: تعليلٌ للإنكار، أوْ للتّحضيض، أو العرض بحسَب ما أفادتْه جملةُ ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ والمعنى: (كيفَ تستمرّون على الشِّرك وقد نهيتُكم عنه، وأنا رسولٌ لكُم أمينٌ عندكم؟)[1]، أوْ أحضُّكم على التّقوى وأَعرِضُ عليكم الإيمان لأنّي رسولٌ أمين؛ فالجملة مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا واقعةٌ في جواب سؤالٍ مفروضٍ متوقَّع منهم.

دلالة التّوكيد في الجملة:

توقُّعُه ﷺ شكَّهم وتردُّدَهم سَوَّغَ تأكيدَ الخبرِ

في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ قد أكَّد ﷺ إخبارهم بأمانته بحرف (إنَّ) الدّالَّة على التّأكيد والتَّعليل مع عدم سبق إنكارهم أمانتَه؛ لأنّه توقَّع حدوثَ الشّكِّ في نفوسهم لِما سيُخبرهم به من أمر رسالته؛ فهذه عادةُ كلِّ الأقوام مع أنبيائهم، ولهذا استدلَّ عليهم بتجربة أمانته الَّتي يَعرفونها عنه قبلَ تبليغ الرِّسالة، فإنَّ حصول الأمانة من قِبَله ومعرفتَهم القاطعة بها، دليلٌ على صدقه فيما بلَّغهم من رسالة اللّه[2]. ولا يَبعُدُ أنَّه رأى في وجوههم أماراتِ الرّفض والتّردُّد، ولذا أجابهم عن سؤالهم المُتوقَّع صدروه منهم بهذه الجملة المفصولةِ عمّا قبلَها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 158.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 158.

نكتةُ تقديمِ متعلّق الخبرِ:

الإشـــارةُ إلى الـــغـــرضِ الأســـاسيِّ لوظيفةِ الأنبياءِ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ على الخبر ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ إبرازًا للاهتمام بهم والحرص عليهم وعلى مصالِحِهم ومَعاشهم ومَعادهم، لكونهم قومَه وإخوته الّذين يَسُرُّه ما يسرُّهم، ويسوؤه ما يسوؤهم، وفي اللّام دلالةٌ على أنّ وظيفةَ الأنبياء الأساس هي تبليغُ الرّسالة للأقوام وإيصالُ الدّعوة إليهم.

معنى (اللّام) في ﴿لَكُمْ﴾:

اخـتـصـاصُ رسـالـتِـهِ عليه السلام بهم من دواعي تحصيلِ ثقتِهم فيه وتصديقِهم له

اللّام في قوله سبحانه: ﴿لَكُمْ﴾ هي لام الاختصاص؛ والمعنى: ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾ خاصَّةً لا لغيركم ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، ولكونِ رسالتي من الله ربِّكم، وكونِها خاصَّةً بكم، ولكونِكم أهلي وقومي، ولكوني أمينًا، فلن أدلَّكم إلّا على ما فيه خيرُكم وتحقيقُ النَّفع لكم، فاللّام أفادت الغرَضيّةَ من الإرسال، وهي تحقيق النَّفع بتبليغ الرِّسالة وإيصال الدَّعوة.

لطيفةُ تنكيرِ الخبر:

التّنكيرُ للخبرِ وصفتِه للتّفخيمِ والتّعظيمِ وبيانِ الأهميّةِ والتّلازمِ بينهما

نكَّر كلًّا من ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ الواردينِ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ لتفخيمهما وتعظيمهما، وبيان مدى التّلازم بين الموصوف ﴿رَسُولٌ﴾ وصِفَته ﴿أَمِينٌ﴾، فكونُه رسولًا من الله مُرسَلًا بأعظمِ رسالة - وهي رسالة التّوحيد - مَدعاةٌ إلى التّعظيم والتّفخيم، وكذلك كونه أمينًا، فإنّه مُقتضى كونِه رسولًا لله في تبليغ رسالته كما حمَّله الله إيّاها؛ لأنَّ الله تعالى لن يُرسلَ إلّا أمينًا بالغَ الوصف في الأمانة، والمعنى: (أنا رسول أمين على الوحي صادقٌ في تبليغه "لا غِشَّ عندي كما تعلمون ذلك مِنّي على طولِ خِبرتكم بي، ولا خيانةَ في شيءٍ من الأمانة؛ فلذلك لا بدَّ لي من إبلاغ جميع الرِّسالة"[1]، ولا بدّ لكم من اتّباعها؛ لأنّها رسالةٌ خالصةٌ مأمونةٌ)، وبذلك أسهمَ التَّنكيرُ لكلٍّ من الخبر وصفته في إقناع المُخاطَبين بكلّ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 14/ 62.

رقّةٍ ورفقٍ أنّه جديرٌ بأنْ يَعرِض عليهم التّقوى، ويحضَّهم على اتّباعه وتنفيذ أوامره المُستمَدَّة من اللّه المُرسِل له.

إشارةُ صيغتَي (فعول وفعيل):

صيغةُ ﴿رَسُولٌ﴾ و﴿أَمِينٌ﴾ بوزن (فَعول وفَعيل) وهما صيغتا مبالغة، وفي إيثارِهما دلالةٌ على المبالغة في الصّفة؛ أيْ: حقيقٌ بالرّسالة كثيرُ الأمانة بالغُها، و(فعول) و(فعيل) فيهما بمعنى مفعول؛ أيْ: مُرسَلٌ ومُؤتمَنٌ على تبليغِ الرِّسالةِ وعليكم.

المُبالَغةُ تولِّد الإقناعَ عند الخِطابِ

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ﴾:

الفاءُ في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ هي الفصيحةُ المُنْبِئة عن شَرطٍ مُقدَّر؛ أيْ: إذا علِمتم أنّي رسولٌ إليكم أمينٌ عليكم حريصٌ على مَنفعتكم ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، وفي الإفصاح عن الشَّرط بيانٌ لعِلَّة ترتُّب الأمرِ بالتّقوى على ما سبق من كونه رسولًا وأمينًا.

دلالةُ الإسنادِ إلى ضميرِ الجماعةِ في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ﴾:

جاء الأمر بالاتّقاء الّذي هو في حقيقته أمرٌ بالإيمان موجَّهًا إليهم بضمير الجماعة في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لأنّهم جميعًا لم يكونوا مؤمنين، وحتّى لو دَخلت معهم القلّة المؤمنة في مضمون الأمر بالتّقوى فلا بأس؛ لأنَّ الأمر بالتقوى بمعناها الشّامل يحتاجُه كلُّ إنسانٍ مؤمنٍ وغير مؤمنٍ، وقد أُمِر به النّبيُّ ﷺ في قوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾ [الأحزاب: 1]، مع أنّه لا يُتصوَّر منه إلّا حصولُها، فكيف بغيره؟ فالتّقوى جِماع الخير كلّه، والأمر بها أمرٌ بالإيمان وما يَتْبَعه من أعمال البرِّ والخير، والبُعد عن أعمال الشّرِّ، ومن ثَمّ فالأمر بها يَصلح لجميع النّاس.

التّقوى جِماعُ الخيرِ كلِّه، والأمرُ بها أمرٌ بالإيمانِ وما يَتْبعُهُ من أعمالِ البِرِّ والخيرِ

دلالة التّعبيرِ بالأُلوهيّة:

جاء الأمرُ بالتّقوى في الآية مُقيَّدًا باسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ في

اختيارُ الاسمِ الجليلِ أنسَبُ بالمَقامِ

قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ دون وصفِ الرَّبّ، فلم يَقُلْ: (اتَّقوا رَبَّكم) لِما سَبَق ذِكْرُه من كَون التّقوى هنا دالّةً بِطَريق الكناية على الإيمان، والإيمان من خصائص الأُلوهيّة، أو أنَّ هؤلاء القوم يؤمنون بربوبيَّة الله، لكنّهم يعبدون أوثانًا من دونه ويُشركون به، فكان الأنسبُ بحالهم أنْ يَخصّوا عبادتهم بالله تعالى وحدَه لا شريك له.

سرّ تكرار طلب التّقوى:

التّكرارُ يَستلزِمُ التّوكيدَ والاهتمامَ

كرَّر السّياقُ الحكيم الأمرَ بالتّقوى في قوله سبحانه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بعدَ الأمرِ بها والحَضِّ عليها في قوله سبحانه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ من باب التّأكيد على الأمر بها، وأيضًا ليتقرَّر ذلك في نفوسهم[1]. وذلك أنّه ﷺ قد افتَتح دعوته بالنّهي عن ترك التّقوى، ثُمَّ علَّل ذلك، ثمَّ أعاد ما تقتضيه جملة الاستفتاح، ثُمَّ علَّل ذلك بقوله: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾، ثُمَّ أعاد جملة الدّعوة في آخر كلامه إذْ قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ مَرَّةً ثانيةً فكانت بمنزلة النّتيجة للدّعوة ولتعليلها[2].

تغايُرُ الخِطابَيْن في زمنَيْن أوْ مرحلتيْن

أو أنّ التّقوى إنّما تكرّرت في النّظم الكريم لتَغايُر الخطابيْن في زمنيْن أوْ مرحلتيْن؛ إذ في الأوّل كان بأسلوبٍ فيه نوعٌ من اللّين والرِّفق بِناءً على أنَّ ﴿أَلَا﴾ للعَرض، وفي الثّاني نوعٌ من الزَّجر والقوَّة كما تُنبِئ عنه صيغة الأمر، وصيغة الأمر تفيد المبالغة في التّقوى لأنّها أمر من (افتَعَل).

دلالةُ وصلِ الجملة في قوله: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾:

طاعةُ الرّسول من طاعةِ الله تعالى

الواو عاطفةٌ لجملة ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ على جملة ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بقصد الجمع والتّشريك بينهما، فإنَّ طاعة الرُّسل من طاعة الله وتقواه لأنّه المُرسِل لهم والآمِرُ بطاعتِهم، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 175.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 159.

فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النّساء: 80]، والجملتانِ مُتّفقتان إنشاءً لفظًا ومعنًى، وذلك من أسباب الوصل بينهما.

دلالةُ التّعبيرِ بالطّاعةِ:

الطّاعةُ تعني مُطلقَ الانقيادِ لما يَصدُرُ عنه ﷺ أمرًا ونهيًا

وردَ في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ لفظُ الطّاعة وهو من الألفاظ الجامعة؛ لكونه يدلُّ على مُطلَق الانقياد[1]؛ أيْ: الانقياد لما يأمر به وينهى عنه بوصفه رسولًا من عند الله، مُبلِّغًا عنه، وقد قال الله تعالى في معنى هذه الطّاعة: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: 7] وصيغة (أفعِلْ) تدلُّ على طلب الطّاعة جملةً واحدةً دون تجزئةٍ أوِ اختيارٍ لما يناسبُهم من تلك الأوامر والنّواهي.

لطيفةُ الأمرِ بالتّقوى لله والطّاعة لنبيّه:

تغايرُ الذاتين يستلزمُ تغاير الوظيفتين

الأُمرُ بالتّقوى مخصوصٌ بالله تعالى؛ لأنّه خوفٌ وإيمانٌ لا يكون متوجِّهًا إلّا للذّات العَليّة، بخلاف الأمر بالطّاعة فإنّه يكون عامًّا مُتوجِّهًا لله وللرّسول أيضًا؛ فالأمر بالتّقوى لا يأتي إلا مُقيّدًا بكونه من الله، محمولًا على معنى اتِّقاء عذابه وعقابه، فقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أيْ: خافوا بأسه وعذابه وقوا أنفسكم غضبَهَ، وهذا لا يتأتّى مع الرُّسل، فلا يُقال: (واتّقوا رُسُلَه) أو: (فاتّقوا اللّهَ واتّقون)؛ لأنّ الرّسول ﷺ لا يملك عقابًا حتّى يُتّقى، أمّا الطّاعة فهي عامَّةٌ فتكون لله وللرُّسل ولغيرهما.

دلالةُ الإسنادِ لضميرِ الجمع في قوله: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾:

وجّه الأمرَ بالطّاعةِ إلى جميعهم، مُتوسِّلًا إلى ذلك بإلحاق (واو الجماعة) فاعلًا للفعل، لكونهم مُطبِقين على عصيانه ﷺ وعدم اتّباعه، ولكونه مأمورًا بتبليغ جميع القوم دون استثناءٍ.

(1) الرّاغب، المُفردات: (طوع).

فائدةُ تقديمِ الأمرِ بالتّقوى على الأمرِ بالطّاعة:

تقديمُ العلّةِ على المعلولِ يُرشِدُ إلى الأصلِ والتّابعِ

في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ قُدِّم الأمر بتقوى الله تعالى؛ لأنَّه الأصل؛ فله حقُّ التّقديم، وأنّه إذا ما تحقَّق هذا الأصل كانَ سببًا في حصول طاعته ﷻ؛ فتقوى الله علّةٌ لطاعته ﷻ فقدَّم العلَّة على المعلول[1]، والسَّببَ على المُسبَّب؛ إذْ لا يمكن إطاعة الرّسول من دون تقوى الله والإيمانِ به والعملِ بأوامره الَّتي منها طاعةُ رسوله والانقيادُ لتبليغاته.

دلالةُ الوصلِ في الجملة في قوله: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾:

الواو عاطفةٌ للتّشريك بين الجُملتيْن في حصولِ العلم بهما من قِبَلِهم

(الواو) هنا عاطفة؛ عطفتْ جملة: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ على جملة: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾، والجملتان مُتَّفقتانِ خبرًا لفظًا ومعنًى، وهذا ممّا يقتضي الوَصْل؛ والمعنى: (قد علِمتم أنّي رسولٌ أمينٌ لكم، وتعلمونَ أنّي لا أسألُكُم أجرًا لنفسي على دعوتكم إلى الإيمان؛ لأنَّ أجريَ في الدَّعوة وأجرَكم في الإصغاء والاستجابة لها هو على الله تعالى).

دلالةُ النّفي في قوله: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾:

نفيُ سؤالِ الأجرِ على الدّعوةِ من المَدعوّين مُطلَقٌ في كلِّ وقتٍ وعلى أيَّةِ حالٍ

تدلُّ (ما) في قوله: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ في الأصل على نفي الحال؛ والمعنى: (ما أسألكم الآن أجرًا كثيرًا ولا قليلًا على ما أدعوكم إليه)، لكنَّها هنا لمُطلَق النَّفي[2]، ولو قال: (ولا أسألكم) لتمحَّض النَّفي للاستقبال، وهو غير مُرادٍ؛ بل المُراد نفيُ ذلك حالًا، ويَستلزِمُ ذلك النّفيَ استقبالًا؛ لأنَّه وقتَ الدّعوة والتّبليغ لا يريدُ على الهداية أجرًا؛ فمِن باب الأَوْلى أنّه لا يريد عليها بعد الاهتداء مالًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بنفي السُّؤالِ:

السُّؤال إنَّما يكون بالكلام، ويَقتضي جوابًا، بخلاف الطَّلب

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 175، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 521.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 276.

فيكون بالكلام ويكون بالسَّعي[1]؛ أيّ إنَّ الطّلب قد يَفتقر إلى سعيٍ وبذلِ جهدٍ وتكلُّفٍ، أمّا السُّؤال فإنّه يكون بالكلام فحسب، فهو أدنى من الطّلب وأيسَرُ، لكونه كلامًا باللِّسان فحسب دون حاجةٍ إلى سعيٍ ولا بذلِ جهدٍ، وفي نفيه ﷺ السّؤالَ بقوله: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ نفيٌ للطَّلَب كذلك من باب أَوْلى؛ لأنَّ نفي الأقلِّ والأدنى نفيٌ للأعلى جهدًا بالضَّرورة.

الطَّلبُ يتحقَّق بالفعل والقَول، والسُّؤالُ يتحقّقُ بالقولِ فحسْب

لمّا كان السُّؤال كلامًا باللِّسان والصَّوت، وكان يقتضي جوابًا مِن المسؤول؛ كان بروزُه وظهوره لجميعهم لا يحتاج إلى عواملَ أخرى من خارجه، وخصوصًا أنّه يقتضي جوابًا، فلا يستطيعُ إنكارَه ما لو حصل منه بالفعل، وحاولَ أنْ يُنكره بعد ذلك، ومعنى هذا: أنّهم جميعًا كانوا سيَعرفون أنّه سألهم هذا الأجر، وأنّهم أجابوا عن سؤاله بالإيجاب أوِ النّفي، وحينئذٍ يكون جميعُهم قد عَرفوا أنَّه قد سألهم، فإذا نَفى عن نفسه السُّؤالَ، وأعلن أمامَهم جميعًا أنَّه لم يسألهم أجرًا، فلم يُراجِعوه فيخطِّئوه؛ فمعنى ذلك أنَّه بالفعل لم يسألهم يومًا ما أيَّ أجرٍ؛ فيكون صادقًا، أمّا الطّلبُ فقد يصحبُه سعيٌ، والسّعي قد يَظهرُ لبعضهم دون بعضٍ، فيكون إخفاؤه - لو وقع - وادّعاءُ نفيه أيسَرُ، فذلك كلُّه يُغلِّب نفيَ السّؤال على نفي الطّلب.

تـغـلـيـبُ نفي السُّؤال على نفي الطّلب

دلالةُ المضارعة في قوله: ﴿أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالفعل المضارع فقال: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ دون الماضي، فلم يَقُلْ: (وما سألتُكم)؛ لأنَّ المقصود استمرارُه على عدم السُّؤال وتجدُّد نفيه؛ لإشعارهم بأنَّه مُستمِرٌّ على تجرُّده عن الأغراض والمنافع الذّاتيَّة جزاءً لما يقوم به من دعوتِهم، وهذا دليلٌ على صِدْقِه وإخلاصِه في دعوتهم، فقد قال سبحانه حكايةً لكلام مُؤمن سورة (يس): ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ

إخـبـارُه ﷺ باستمراره على عدم طلَب الأجر منهم دلالةٌ على إخلاصه

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 289.

رَجُلٌ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۝٢١﴾ [يس: 20 - 21].

إشارةُ التَّعبيرِ بالمفعول ضميرَ جمعٍ في قوله: ﴿أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾:

الـدّلالـةُ على أنَّهم كانوا على مـوقـفٍ واحـدٍ من الـشّكِّ فيه واتّـهـامـه ﷺ بالغرَض

وجَّه ﷺ خطابه إيّاهم إلى جميعهم بضمير الجمع في ﴿أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾؛ للإشارة إلى أنَّهم جميعًا كانوا في موقفٍ واحدٍ من التّنكُّر له والشَّكِّ في خُلوص دعوته وتجرُّدها من الغرَض، ولذا خاطَبَهم بضمير الجمع ليُثبتَ لهم إخلاصَه في دعوته، بدليل أنَّه لم يسألهم جميعًا ولا أفرادًا أجرًا على ما يقوم به، وأيضًا في مخاطبته إيّاهم بضمير الجمع قطعٌ بالحُجَّة على جميعهم، فلو كان قد سأل بعضَهم دون بعضٍ وحاولَ الإخفاء، فليَخرُجْ هذا المسؤولُ وليُحرجْه أمامَ النّاس، فإذا لم يَخرج واحدٌ منهم ليُكذِّبَه حصل الدَّليلُ القاطعُ على صدقه فيما نفاه عن نفسه من عدم سؤال الأجر.

دلالةُ (على) الجارّة في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِ﴾:

التّـعـلـيـل والاسـتـعـلاءُ المَجازيُّ يُحقِّقان نـزاهـةَ الأنبياءِ مـن الأجـرِ الدُّنيويِّ

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ يَحتَمل حرفُ الجرِّ (على) المُتعلِّق بـ ﴿مِنۡ أَجۡرٍ﴾ في ﴿عَلَيۡهِ﴾ التّعليلَ[1]؛ كما هي في قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة: 185]؛ أيْ: لأجْل ما هداكم وبسببه، والَّذي نميل إليه أنّها للاستعلاء المَجازيِّ، فكأنَّ الأجر والمال يعلو على الدّعوة والتّبليغ لأنّه يكون مُقابِلًا لها وغرَضًا أساسيًّا يَطمَح للوصول إليه.

مَرجعُ الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِ﴾:

عَـودُ الـضَّـمـيرِ إلى المعلومِ يُفيدُ الاهتمامَ بشأنِهِ

الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِ﴾ يعودُ إلى معلومٍ من مَقامِ الدَّعوة[2] وتبليغِ الرِّسالة؛ أيْ: ما أسألكم أجرًا على دعوتي إيّاكم إلى الإيمان، وهذا العَود للضَّمير الغائب إلى المعلوم يُفيد الذِّهنَ في

(1) هو أحد معانيها، المُراديّ، الجَنَى الدانيّ، ص: 477.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 159.

ربط الكلام واقتناص المَرجِع، كما أنَّه يشير إلى أهمّيَّته ومِحوريَّته في الخطاب.

لطيفةٌ في تقديمِ المتُعلّق:

تـقـديـمُ الأهـمِّ على المُهِمِّ

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ قيدانِ مُتكوِّنانِ من جارٍّ ومجرورٍ؛ الأوّلُ: قوله: ﴿عَلَيۡهِ﴾، والثّاني: قوله: ﴿مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾، وقد قُدِّم الأوَّل على الثّاني، لكونه قد اشتملَ على ما هو أحقُّ بالتَّقديم والاهتمام، وهو الضَّمير العائد على الدَّعوة والرِّسالة، بخلاف الأجر فإنّه إنْ كان قد قاله ردًّا على شكِّهم فيه أنّه طَلَبَه منهم وسألَهم إيّاه، فالواقع خيرُ مَن يَرُدُّ عليهم في ذلك؛ فهو لم يسألهم شيئًا، ولذلك قالها في وثاقةٍ: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾، وإن كان قد قاله هو ابتداءً من نفسه دفعًا لِما يمكن أن يكونَ في نفوسهم من اتّهام أو شكٍّ دون وقوعه بالفعل، فهو أيضًا لا يُسوِّغ التّقديم على ما هو أهمُّ منه، وهو أمر الرِّسالة والدَّعوة، كما أنَّ في التّقديم ما يدلُّ على الاختصاص، فهو لا يسأل أجرًا على التّبليغ والدّعوة، وإنْ كان قد يسأل أجرًا على الأمور الدّنيويّة والأحوال الاجتماعيّة.

معنى مِن الجارَّة في قوله: ﴿مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾:

(مِـنْ) دالّـةٌ على استغراقِ النَّفي

﴿مِنۡ﴾ في قوله سبحانه: ﴿مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ هي ﴿مِنۡ﴾ الاستغراقيّة الدّالَّةُ على استغراق النّفي؛ جيء بها للدَّلالة على عموم النّفي؛ أيْ: عموم نفي سؤاله أيَّ أجر منهم يمكنُ أن تدلَّ عليه كلمة ﴿أَجۡرٍۖ﴾ قليلًا أوْ كثيرًا، واستغراقِ كلِّ معانيها الَّتي تحتملها؛ فلا أسألكم على هذا التّبليغ أيَّ أجرٍ ممّا يتعلَّق بالدُّنيا، فلا أسألكم جاها، ولا رياسةً، ولا سلطانًا، ولا غايةً، ولا مالًا، ولا أيَّ عرَضٍ من أعراض الدُّنيا[1].

براعة التَّعبير بمادَّة الأجر:

عبَّر بكلمة (الأجر) مُؤثِرًا إيّاها على غيرها في قوله تعالى:

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5378.

﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾: لعموم دلالتها على كلِّ نفع مُلزِم يعودُ على صاحبه، مقابلَ ما يقوم به من عملٍ؛ ولذا فإنَّه يُقال: "فيما كان عَن عَقْدٍ وما يجري مُجرى العَقْد، ولا يُقال إلّا في النَّفع دون الضّرِّ"[1]، كما أنَّ الأجر من شأنه أنْ يكونَ قبل القيام بالفعل المأجور عليه، والشاهدُ أنّك تقولُ: ما أعمل حتّى آخُذ أجري[2]، ومعنى هذا أنّه ينفي عن نفسه اشتراطَ أجرٍ عليهم يَبذلونه له قبلَ أنْ يبلِّغَهم رسالةَ ربِّه، ويدلَّهم على سُبل الخير النّافعة لهم في الدّنيا والآخرة، فالدَّعوة الخالصة الصّادقة مُنزَّهة عن هذا الأجر سواء كان قبلَ العمل أو بعدَه.

من دلائل الإخلاص في الدَّعوة عدمُ سؤال الأجر عليها

دلالةُ التّنكيرِ في قوله: ﴿مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾:

كلمة ﴿أَجۡرٍۖ﴾ نكرةٌ وقعَتْ في سياق النّفي فتفيد العموم؛ والمعنى: (لا أسألكم على دعوتي إيّاكم ونُصحي لكم أيّ أجرٍ لنفسي؛ كثيرًا كان أوْ قليلًا، ومن أيِّ نوعٍ كان هذا الأجر؛ مالًا أوْ مُلكًا أوْ غيرَه)، وهذا المعنى قد تعاضدَ عليه زيادةُ ﴿مِنۡ﴾ الاستغراقيَّة وتنكير ﴿أَجۡرٍۖ﴾.

التّنكير لإفادةِ العمومِ

نكتةُ الفصلِ في جملة: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا﴾:

فُصلت جملة ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا﴾ عمّا قبلَها على الاستئناف البيانيِّ الَّذي يُنشِئ ما يُعرف عند البلاغيّين بـ (شِبهِ كَمالِ الاتِّصال)، وذلك أنّه لمّا نفى عن نفسه من كلِّ وجهٍ سؤالَهم أيَّ أجرٍ نظيرَ ما يبذله في دعوتهم، فكأنَّه قيل: فإذا لم تكن طالبًا من وراء ذلك أجرًا من مالٍ أوْ مكانةٍ أوْ أيّ غرضٍ من أغراض التّنافُس في الدّنيا، فلماذا تُبالغُ في إرهاق نفسك في سبيل دعوتنا مع عدم استجابتنا لك، وممَّن تطلب الأجرَ إذن؟ فكان الجواب: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

الفَصلُ على الاستئنافِ البيانيِّ (شِبهِ كَمالِ الاتِّصال)

(1) الرّاغب، المُفردات: (أجر).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 237.

معنى ﴿إِنْ﴾ في قوله: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا﴾:

﴿إِنْ﴾ في جملة ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ نافيةٌ بمعنى (ما)، ولهذا النّفي أثرُه في تكوين أسلوب القَصْر المفيد للتّوكيد، على ما سيأتي بيانه.

لطيفة الإظهار في قوله: ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كان المُقتَضى أنْ يُعبَّر بالضَّمير فيقول: (وَما أَسْأَلُكُم عليه مِنْ أَجْرٍ إنْ هو إلّا على ربِّ العالَمين)، لكنَّه أظهر (الأجر) وأضافَه إلى ضميره، فقال: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إبرازًا لكون أجره فقط على الله تعالى، وتعظيمًا لذلك الأجر، فإنَّ الأجر إذا كان من العظيم، فحتمًا سيكون عظيمًا، وبذلك يتقاطعُ الأجران: أجرُ النّاس في الدُّنيا الَّذي أورده منكَّرًا؛ للدلالة على قلَّته مهما كان عظيمًا، وأجرُ الله تعالى الَّذي أورده مَعرفةً؛ للدّلالة على فخامته وعظمته في الحقيقة ونفس الأمر، فالإضافةُ في ﴿أَجْرِيَ﴾ هي إضافة تعريف؛ أيْ: إنَّ أجريَ الخاصَّ بي لا أطلبُه منكم، ولكنَّ الله تعالى هو الَّذي سيَمنَحُني إيّاه فضلًا منه وكرمًا.

إظهارُ الأجر في محلِّ الإضمار تعظيمًا له لكونه من ربِّ العالَمين

معنى ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جاءتْ الأداة ﴿إِلَّا﴾ للاستثناء، وهي هنا مفيدةٌ مع ﴿إِنْ﴾ النّافية للقصر؛ لكونها جزءًا مُهمًّا من تكوين جملة القَصر، المفيدةِ للحصرِ المُستلزمِ للتَّوكيد.

دلالةُ القصْر في قوله: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

القَصرُ في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قصرٌ حقيقيٌّ من قصر الصِّفة على الموصوف، قد أُريد به نفيُ طلَب أيِّ أجرٍ من أحدٍ سوى الله تعالى نفيًا تامًّا، وجملة القصر: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فضلًا عمّا فيها من تأكيد نفيِ طلبِه ﷺ أجرًا

الأنبياءُ والمُخلِصون لا يطلبون أجرهم إلّا من الله تعالى حصرًا

منهم أو من غيرهم؛ فإنها كذلك مؤكّدةٌ للجملة السّابقة: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾.

بلاغةُ القصرِ بالنّفي والاستثناء:

استخدمَ أقوى طُرقِ القصرِ لوضوح ما دلَّ عليه وبُروزِه لجميع النّاسِ

القَصرُ بطريقِ النَّفي والاستثناء في قوله: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هو أقوى طُرُقِ القصر، وكان النّفي بـ﴿إِنۡ﴾ دون (ما) لأنَّ النَّفي بـ﴿إِنۡ﴾ أكثرُ تأكيدًا، وقد أكَّد القصرَ هنا كونُ أجره ﷺ وأجرِ كلّ الأنبياء على الله تعالى لا غيره، وهو أمرٌ واضحٌ مُقرَّر لا يُجهَل، قد صار في حُكم القواعد والمُقرّرات المعلومة، ومن أبرز أدلَّته أنَّ الأنبياء لا يَسألون ولايَطلبون أجرًا من النّاس على دعوتهم وتبليغِهم ما أُنزل إليهم، وهو ما لا يُنكره المَدعوّون، ونتيجته أنَّهم واثقون في ثبوت أجرهم على مَن أرسلَهم.

دلالة حرف الجرّ ﴿عَلَىٰ﴾:

ثبوتُ الأجرِ وتحقُّقُه

أصلُ التَّعبير في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ﴾ أنْ يكونَ بـ(مِن)؛ لأنَّ الأجرَ مِن الله ليس عليه، لكنَّه آثَرَ التَّعبير بـ﴿عَلَىٰ﴾ للدّلالةِ على عُلوّ الأجر المُستحَقَّ له من ربِّ العالمين، وعلى كونه واقعًا لهم لا محالة فضلًا من الله وكرمًا، وعبَّر بـ﴿عَلَىٰ﴾ الدّالّة على الاستعلاء؛ للإشارة إلى علوِّ هذا الأجر الَّذي ينتظرُه بعدما وُعِد به، فهو أجرٌ من الله تعالى ربِّ العالمين، وهو أعلى وأسمى من أيِّ أجرٍ دُنيويٍّ يُمكن أن ينالَه منهم، وأيضًا فإنّ مِن دلالات ﴿عَلَىٰ﴾ الوجوبَ، ولمّا كان الله تعالى لا يجبُ عليه شيءٌ، وأنَّ كلَّ ما يُفيض به على عباده هو من بحرِ فضلِه وكرمه؛ كان التَّعبير بـ﴿عَلَىٰ﴾ دالًّا على تحقُّقِ وقوع الأجر له ﷺ من الله تعالى؛ لأنّه وعدُ الله، ووعد الله لا يتخلَّف؛ ففي التَّعبير بـ﴿عَلَىٰ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تَبَعيّةٌ.

الإنعامُ بالأجرِ من تجلّيات الرّبوبيَّة

لطيفةُ التَّعبيرِ بالرُّبوبيّة مع الأجر:

عبَّر السّياق القرآنيّ بالرّبوبيَّة دونَ الألوهيّة في قوله سبحانه:

﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وليس بلفظ الجلالة الأعظم (الله)؛ لأنَّ الأجرَ - وهو أحدُ مَظاهر الإنعام الأصيلة - من تجلّيات الرّبوبيَّة الَّتي تَرجعُ إليها كلُّ مَظاهر الخَلْق والتّدبير والإنعام والرِّعاية، أمّا الألوهيَّة، فلها كلُّ اعتبارات المَهابة والجلال والعبادة والإذعان، ولا ننسى أنَّ التربيةَ تكميلُ النُّقصان، والعبدُ محتاجٌ إلى تكميلٍ بنَيلِ الأجر والثّواب.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

لفظُ (العالَمين) جمعٌ باعتبار الأفراد مجازًا؛ أوْ باعتبار الأجناس والأنواع حقيقةً

لفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هو جمعُ (عالَم)، و(العالَم) هو اسمٌ لمجموع ما سِوى الله تعالى؛ فيشملُ بذلك كلَّ المخلوقات، وهو أرجحُ الآراء في معنى الكلمة وأصحُّها لقوله تعالى: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٢٤﴾ [الشُّعراء: 23 - 24]؛ فكيف يتحقَّقُ جمعُه وهو شاملٌ لِما سواه تعالى؟ فقرَّروا أنَّ الجمع له بالنّظر إلى الأفراد، فكأنّ العالَم المفردَ اسمٌ للمجموع وأُريد بجمعه الأفرادُ مجازًا وإلّا كان الجمعُ مُساويًا لدلالة المُفرد، وبعضُهم حقَّق أنَّ العالَم اسمٌ للقدْر المُشترَك من كلّ جنسٍ ونوعٍ وصنفٍ، فيُقالُ عالَمُ الحيوان وعالَم الجنِّ وعالم الإنس، إلخ، والقَدْر المُشتركُ بينها هو شيءٌ سوى الله تعالى وصفاته، وحينئذٍ فالجمع ظاهرٌ حقيقةً؛ لأنّه باعتبار الأجناس والأنواع والأصناف[1].

وقيل: العالَمون هم فقط العُقلاء (الإنس والجنُّ والشّياطين والملائكة)، ولا يُقال للبهائم (عالَم)؛ لأنَّ هذا الجمع إنَّما هو جمعُ مَن يعقل[2]. فيكونُ الجمع أقلَّ صدقًا وشمولًا من مُفرده، ولذا صار مُلحَقًا بالجمع.

(1) الدّسوقيّ، حاشيته على أمِّ البراهين، ص: 99.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 1/ 25.

نكتةُ الجمعِ في قوله: ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

أل الجنسيّة الدّالّة على الاستغراقِ بمَعونةِ المَقامِ

(أل) في ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لاستغراق الجنس والأفراد، سواءٌ أُريد باللّفظ كلُّ المخلوقات بِناءً على المعنى الأرجح، أوْ أُريد به جنس العقلاء فقط، وهو رأيٌ بارزٌ أيضًا في الكلام عن المُراد بلفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ودليلُ كونها للجنس صحّةُ أن يحلَّ لفظ (كُلّ) محلّها، والغايةُ من هذا الجمع والتّعريفِ بـ(أل الاستغراقيّة) إظهارُ الافتقار إلى مالك الأجور كلِّها، وبيانُ السِّرِّ لعدم طلب الأنبياء ﷺ الأجورَ من العباد؛ لأنَّ مالكَها هو الله تعالى، وممّا لا شكَّ فيه أنَّ أجره يختلفُ عن أجور العباد الفانية النّاقصة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التّقوى والخوف:

الخوفُ سببٌ لحصول التّقوى، وقد يُطلق كلٌّ منهما على الآخر تَجوّزًا

بين التّقوى والخوف تلاقٍ واشتراكٌ، وقد تُسمَّى التَّقْوَى خوفًا وخشيةً، ويُسمَّى الخَوْفُ تقوى[1]. قال الرّاغب: "التَّقوى غايةُ الخوف، وهو لها سببٌ ومُقتضٍ، وإطلاقُ كلٍّ منهما على الآخَر مجازٌ مرسل؛ فالتَّقْوَى جعلُ النّفس في وِقايَةٍ ممّا يُخاف، هذا تحقيقه، ثمّ يُسمّى الخوف تارةً تَقْوى، والتَّقْوَى خوفًا حسبَ تسمية مُقتضَى الشّيء بمقتضيه والمقتضي بمقتضاه، وصار التَّقْوَى في تعارف الشّرع: حِفظَ النّفس عمّا يُؤثِّم، وذلك بترك المحظور، ويتمّ ذلك بترك بعض المباحات[2] لقوله ﷺ: «الحَلالُ بَيِّنٌ، والحَرامُ بَيِّنٌ، وبَيْنَهُما مُشَبَّهاتٌ لا يَعْلَمُها كَثيرٌ مِنَ النّاسِ، فمَنِ اتَّقَى المُشَبَّهاتِ اسْتَبْرَأَ لِدينِهِ وعِرْضِهِ»[3]؛ وبهذا يَظهر أنَّ الخوف هو سببٌ ومُقتضٍ لحصول التَّقوى، والتَّقوى غايةٌ له، وإنْ سُمّي كلٌّ منهما باسم

(1) الكَفَوِيّ، الكُلّيّات، ص: 299.
(2) الرّاغب، المُفردات: (وقى).
(3) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب: الإيمان، الحديث رقم: (52).

الآخر، فعلى سبيل المجاز المرسَل في تسمية السَّبب باسم المُسبَّب حال أُطلِقَ على الخوف تقوى، أوِ المُسبَّب باسم السَّبب حال أُطلِق على التقوى خوف.

السُّؤال والطّلب:

بين السُّؤال والطّلبِ تلازمٌ؛ فإذا انتفى السُّؤال انتفى الطّلب

السُّؤال قد يأتي بمعنى الطّلب وبغير معنى الطّلب، فإذا كانَ بِمَعْنى الطّلب والالتماس يتَعَدَّى إِلَى مفعولَيْن بِنَفسِه، وإذا كانَ بِمَعْنى الاستفسار يتَعَدَّى إِلَى الأوَّل بِنَفسِه، وإِلَى الثّاني بـ(عَن) تَقول: (سَأَلتُه كَذا) و(سَأَلتُه عَنهُ سؤالًا ومَسْأَلَة) و(سَأَلتُه بِهِ)؛ أَيْ: عَنهُ[1]، والسّؤال لا يكون إلّا كلامًا، ويكون الطّلب بالسَّعي وغيره، كما في مثل: عليك الهرب وعليَّ الطَّلب[2]؛ أيْ: إنَّ الطّلب يكون كلامًا ويكون فعلًا، في حين أنّ السّؤال لا يكون إلّا كلامًا، وبهذا يكون بين السّؤال والطّلب تلازمٌ في التّحقُّق؛ فإذا انتفى السّؤالُ انتفى الطّلبُ بخلاف العَكْس، وقد أوثر في الآية نفيُ السّؤال على نفي الطَّلب لذلك، كما تقدَّم بيانُه مُفصَّلًا في التَّفسير للآية.

(1) الكَفَويّ، الكلّيّات، ص: 501.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 289.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والثلاثون،
سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 39 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-84-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 39 : المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-84-6
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8468153 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»